ISSN 2773-2940 EISSN 2800-1435 المجلد 05 العدد 01 (مارس، 2023) ص 95 إلى 112

الطرح الثقافي بين الذات وحضور الآخر

رواية" اختلاط المواسم" لبشير مفتي أنموذجا

The Cultural Proposal: the Self and the Presence of the Other "The Case of Bashir Mufti's Novel "Mixing Seasons

سارة سكيو*

مخبر الموسوعة الجزائرية الميسرة

جامعة باتنة1، sarah.sekkiou@univ-batna.dz

تاريخ الإرسال	2023/01/20	تاريخ القبول	2023/03/03

ملخص

تحوم مدارات هذه الدراسة حول إسقاطات الأنساق الثقافية الغربية على الأثر السردي الروائي الجزائري المتمثل في رواية "اختلاط المواسم" لبشير مفتي؛ حيث سنعالج واقع التأثر والتأثير المهيمن على هذا النص الإبداعي وما يحمله من أفكار غربية تعالج فكرة تشظي الذات العربية وضياعها إثر استقبال الأفعال والأفكار الغربية.

هذا الذي سنقاربه ونحلله انطلاقا من منظور الشخصيات الرئيسة في هذه الرواية نحو شخصية "القاتل" التي طبعت بعبثية التفكير وسادية الأفعال غير السوية و"سميرة قطاش" التي مثلت نموذجا نسائيا يخالف سجايا المرأة العربية بعامة والجزائرية بخاصة.

الكلمات المفتاحية: الرواية؛ الآخر؛ الثقافة؛ الهوية؛ الذات؛ القتل.

Abstract:

The current study revolve around the projections of western cultural systems on the Algerian novelist's narrative impact represented in Bashir Mufti's Novel "Mixing Seasons". It aims at exploring the influence and being affected dominating on this creative text containing western ideas dealing with the idea of fragmentation of the Arab self and its loss proceeding the reception of Western actions and ideas. From the perspective of the main characters in this novel, the study attempts to approach and analyze the personality of the "killer". This latter is characterized by the absurdity of thinking and sadism of abnormal actions from one hand, from the other hand Samira Qatash" represented a female model who contradicts the characteristics of Arab women in general and Algerian one in particular.

Keywords: novel; the other; culture; self; identity; killing.

*المؤلف المرسل

1.مقدمة

إن تناص الخطاب الروائي مع الأنساق الثقافية والظواهر السياقية الخارجية كان لابد أن يثمر صداه خاصة في الأعمال السردية المعاصرة، فقد لاحظنا تثمين الأعمال الروائية لعديد النظريات الإيديولوجية وتضمينها إياها كون هذه الأخيرة ترتبط ارتباطا مباشرا بالشخصيات المسرودة التي عادة ما تكون مظروفة بظروف تأثرية وتأثيرية من ذلك الحيز الثقافي الاجتماعي الذي تنمو فيه، ومن مثل ذلك تأثر الرواية الجزائرية بتلك الأبعاد الثقافية الغربية فصارت تطرح أفكارا غربية المحتوى؛ لأنها حقا صارت تعكس الواقع والحقيقة، لذلك اخترنا رواية بشير مفتي 'اختلاط المواسم' حتى نزيل اللغط حول الأسئلة التالية: كيف تأثر المتن الروائي بالبعد الثقافي؟ وفيم تتجلى أهم المنعطفات الثقافية بين الذات العربية وبين الذات الغربية الإفرنجية الموروثة لا شعوريا من لدن المستعمر الفرنسي؟ وللإجابة عن هذه التساؤلات اتبعنا خطوات المنهج الوصفي حتى نصف أحداث الوضع الثقافي المسرود خاصة مع شخصية 'القاتل' وما لاحظنا مع شخصية 'سميرة قطاش' معتمدين على مصادر ومراجع مهمة في المجال الإيديولوجي.

2.الأبعاد الثقافية للذات بين الحداثة وما بعد الحداثة

1.2 التجربة السردية ما بين الثبات والتشظي الثقافي:

تلعب الأطياف الثقافية دورا مهما ذا بعد تأثيري وبخاصة في الأعمال الإبداعية التي تنتج من لدن المبدعين الذين ينبع مصدر إلهامهم من الواقع الحقيقي لا الواقع المتخيل، هذا الذي نجده حاضرا وبقوة في الأعمال الأدبية لاسيما في جنس الرواية، إذ تعدّ هذه الأعمال السردية بؤرة تجمع الأفكار والأنساق

الثقافية المختلفة ولو كانت شخصيات هذه الآثار الروائية تنتمي إلى المنظومة الاجتماعية نفسها التي هي في حد ذاتها تتمايز وتتباين من شخصية إلى أخرى.

بطبيعة الحال لاحظنا أنه حقا "يشكل الفن الروائي مكانة معتبرة في حياتنا الواقعية والفنية والجمالية على السواء، وذلك لأسباب عديدة لا يتسع بنا المجال هنا لتتبعها والتوقف عندها، بل حتى عند بعضها، ولعل أبرزها كون هذا الفن الجديد على مجتمعاتنا التي كانت مدينة لفني الحكاية، والشعر، ومرتبطة بهما أشد الارتباط، إذ نعتبرها نحن في تاريخية سردياتنا مجرد حلقة حداثية، من ضمن سلسلة طويلة من الأشكال الفنية المتتالية التي مارسها الأديب العربي، وأبدع فيها، إبداعات مميزة، خلال مسيرة حياته السردية، وعبر تلك القرون المتلاحقة، بحيث وصلت ذروتها على وجه التحديد خلال القرنين التاسع عشر والعشرين، إضافة إلى أننا نعتبر الرواية في معرفتنا الجديدة بها جنسا أدبيا معاصرا بكل ما لهذا التعبير من معنى، ذلك لأن الإنجازات العظيمة التي حققتها البشرية خلال مسيرتها، وعلى جميع الصعد، قد تمت إبان هذه الحقب المتزامنة والمتلاحقة، ثم لأن هذا الفن الأدبي الجميل الفريد في تناوله لقضايا الإنسان ومصاعبه الحياتية، كونه قد حاول أن يقربنا من تاريخنا الاجتماعي ويجعلنا على مسافة قريبة من خصوصياتنا النفسية، وبذلك نجده قد طفق يتلمس كثيرا من مسائلنا الاجتماعية الخاصة بذواتنا، وبدرجة أخص في هذه المدد المتأخرة، إذ بوساطة هذا الفن الروائي، بدأنا نتعرف على ذلك الرابط الذي جمعنا بوشائج واقعنا المعيش ثم لأنه بدأ كذلك يقارب الهوة بيننا، وبين همومنا الحياتية(بلحيا، 2017، صفحة 17)وطبعا تتعلق الحياة بتلك الانفعالات النفسية وطبيعة السلوك الذي ينجم عن الأفراد الذين كثيرا ما نجد أشباههم في روايات معينة، على نحو رواية 'اختلاط المواسم' للروائي الجزائري بشير مفتي التي تحمل أنساقا ثقافية كثيرة سواء

الواضحة الظاهرة للعيان أو تلك المضمرة التي يكتشفها المتلقي في أثناء عملية تصفحه لصفحات الرواية وما يزاوله ويمارسه صاحب الشخصية الرئيسة المكنى بـ'القاتل' في كل يوم من حياته استهلالا من مرحلة الطفولة التي يتحدث عنها هذا الأخير ويصفها نحو قوله "الطفولة ترتسم في عقول البشر كمرحلة براءة، إلا أني منذ الطفولة رأيت نفسي بهذه القتامة، دون قدرة على الفهم أو الشرح، ولم يكن يوجد في الطفولة من ينتبه لشيء كهذا، شيء مروع يسكنني، شيء مخيف يستطيع أن يفعل الشرّ دون أن يعتريه إحساس بالذنب(مفتي، 2019، صفحة 13) المونولوج الداخلي لهذه الشخصية ينم عن بداية طرح لتساؤلات واعية من جهة، وغير شعورية من جهة أخرى، إذ تدور هذه المحاورات بين شخصية القاتل وذاته فيكمل قائلا بشكل فحواه تساؤلات وجودية ووجدانية نحو "هل كنت عديم الإحساس؟ لا، مطلقا، كانت عندي مشاعري المشوشة. كنت أحب أمي وأعطف عليها كثيرا، وأكرهها من حين لآخر مع والدي لأنهما أنجباني في سن متأخرة. كانت أمي في الخامسة والأربعين وأبي يقارب الستين، ولدت في بيت عجائز مسكون بالصمت والوحشة، ولم يتح لي الزمن في معرفة سبب تأخرهما في قرار الإنجاب رغم أنهما تزوجا في مرحلة الشباب، وكان يجمعهما حب قوي ومثير وكان يظهر ذلك في علاقتهما المترابطة والمتراصة، وفي تفاهمهما عندما تحدث مشكلات أو تواجههما ظروف صعبة، شاهدت هذا في أكثر من موقف. وبالنسبة إلي أعطياني كل ما يقدران على إعطائه؛ من محبة ورفق وتعليم واهتمام. لقد جئت إلى حياتهما باختيارهما، لقد أراداني، فكنت، ولم يبخلا علي بشيء(مفتي، 2019، الصفحات 13-14)إن الطرح الثقافي المطروح كقضية مستعصية جلي خاصة في هذا المقطع المروي، فلنلاحظ مثلا كلام القاتل عن البعد الأيديولوجي والثقافي الذي استلهمه وعاش وفق ظروف كان مظروفا بها رغما عنه -على حسب اعترافاته- فالطبيعي أنه في الحيز الجغرافي والزماني في المجتمع العربي أن تكون العائلة وعلاقة الأم والأب

أمرا ليس بالهين التدخل فيه، بل له قوانين مسنونة ولابد من احترامها ليس فقط تلبية للعقائد والعرف المتوارثة التي تناقلتها الأجيال العربية الإسلامية من جيل إلى آخر بل أيضا بسبب ذلك الزخم والمكانة التي يحتلها نظام العائلة وحب الأم والأب في الدين الإسلامي، لكن الغريب حقيقة أننا نلاحظ مع شخصية القاتل وجود تنافر واضح وانتفاضة عدوانية تجاه العلاقة التي كانت بين والديه حتى أنه تدخل في معايير وتوقيت إنجابه من لدنهما، بل صرح بفتور أنه يشمئز لكونه ينمتي لمثل هذه العائلة واصفا بيتهم ببيت الأشباح والمسنين، ولمعرفة سبب حدوث مثل هذه الأطياف السيكولوجية الطافرة عن الطبيعة لابد من أن تضمر الشخصيات المدروسة في المتن الروائي الذي نؤكد على نجاعته في خوض غمار مثل هذه الموضوعات، فالرواية جنس يعكس الواقع ويعالجه بطريقة فنية لها هناتها ولها انتصاراتها "إضافة إلى أنها تقدم ضمن متنها فهما أعمق للنفس البشرية ولدواخلها، ولعوالج الروح، وما تخفيه من كوامن قد لا يلامسها أي فن آخر، ثم لأنها تقترح حلولا خيالية لمشكلاتنا الواقعية التي نعيشها، من تلك التي قد تصدق على الحياة أحيانا، وقد لا تصدق ولا يضيرها عدم صدقها في شيء، وبالتالي فإن كونها تتأسس على مجموعة من الأركان الضرورية فنية وجمالية من حيث هندستها العامة، وباعتبارها جنسا أدبيا يروي في حقيقته المحصلة قصة (حكاية) وقعت أو متوقعة الحدوث لا أكثر(بلحيا، 2017، صفحة 19)وهذه الخصوصية التي تحملها الرواية خاصة في كشف الغموض عن الرواسب الثقافية ومعالجة تلك الاختلالات التي تستنبط وتلاحظ على الشخصيات سواء الرئيسة منها أو الثانوية لقيت رواجا كبيرا بالأخص في العالم العربي، لذلك كثيرة هي الدراسات التي تبحث عن الأفكار الثقافية الأصلية الخاصة بالمجتمع العربي وتلك الدخيلة المستوردة من العالم الغربي موجودة بشكل طاغ في عديد الآثار الروائية نحو "روايات نجيب محفوظ،

وإبراهيم الكوني، بوجه خاص، وعلى كتابات مبدعينا الذين أخذوا من الغرب والشرق على السواء، الطيب الصالح، وغسان كنفاني، وعبد الرحمان منيف وجمال الغيطاني وحنا مينا، والطاهر وطار، وادوارد الخراط، والأعرج واسيني، وغيرهم من الروائيين الذين استطاعت أقلامهم ملامسة هذه الخصوصيات في مجتمعاتهم،فقد بات من المؤكد في أزمنتنا المتأخرة بأن الرواية العربية تتقبل مختلف الأبنية، وتتشرب مختلف الأنساق الجمالية كتلك التي يطرحها المنظرون المعاصرون، سواء بخصوص الحداثة أو ما بعد الحداثة، كما أنها قد نجحت في اختراق هذه العوالم الحداثية من خلال تطويرها لأدواتها الفنية وتطويعها لجماليات لغتها، وبخاصة منها تلك اللغة السردية الراقية، التي جعلت بعض الفنون القديمة أداة طيعة للتوظيف الفني(بلحيا، 2017، صفحة 19)فالتداخل والتراصن الذي نلاحظه في هذه المتون الإبداعية والذي جمع بين الأفكار العربية والغربية في وقت واحد صار حجر الأساس في تحويل الأحداث المسرودة من مسار الطبيعة النمطي إلى مسار الواقع الذي لا يعترف به أي شخص في المجتمع، وكأن كل هؤلاء الأدباء قد وجدوا ضالتهم بالهرب بأفكارهم الحقيقية التي لا مجال للاعتراف بوجودها نظرا لعدة عوامل دينية أو اجتماعية وحتى أخلاقية، إلى ملجأ العالم الفني الروائي الذي سمح بتبني عديد النظريات السيكولوجية وبخاصة تلك التي تتحدث عن العقد النفسية والتصرفات غير السوية التي تنتجها الشخصيات كردة فعل على صدمات واقعية حدثت معهم في مرحلة الطفولة بخاصة كما رأينا في النص السابق الذي سردته شخصية القاتل.

لابد من الانتباه وتسليط الضوء في العالم الفني على مسألة انفتاح الذات على العالم ."تتجلى تجربة الانفتاح -في شعر التيار الأول- من خلال حضور الآخر الإنساني، أو واقعه، في عالم الذات الإبداعي حضورا يؤكد قيام هذه التجربة في وعي الذات من ناحية، ويحيل -من ناحية ثانية- حضور كالذات في عالمها الإبداعي

انبثاقا عن الآخر، أو تجسيدا له، غير أن حضور الآخر قد أخذ -كذلك- أشكالا مختلفة ومستويات متعددة يمكن ردها إلى شكلين رئيسين: شكل التجلي وشكل الخفاء. فحين يتجلى الآخر -لغويا- في بنية الخطاب الإبداعي تأخذ علاقة الذات به معنى الحلول فيه، أو الاندماج به، ومن ثم يأخذ حضور الذات في عالمها الإبداعي معنى التجسيد اللغوي لحضور العالم الذي اندمجت به، وحيث التحول عن عالم الآخر، إلى عالم ممكن، هو انبثاق عن عالم هذا الآخر ليأخذ -من ثم- حضور الذات في عالمها الإبداعي معنى الحضور الفاعل في العالم الذي تحولت عنه سعيا إلى تجاوزه، وهنا يبرز في هذا التيار عالمان متداخلان ومتعاكسان في آن. عالم الآخر مجسدا في عالم الذات. وعالم الذات منبثقا عن عالم الآخر(الحميري، 1999، صفحة 27) فإذا كان التعبير الإبداعي جزءا منه يحمل أحقية طرح الواقع وما يحصل حقيقة دون تزييف، فإننا نجد في الآثار الإبداعية ذاتها نقطة مماس مهمة بين تفعيل الذات والكينونة وبين الأبعاد الثقافية التي تستورد عادة من القطب الآخر الغربي، فمثلا كثيرا ما صارت الهوية العربية متصدعة الإسقاطات في الأعمال الروائية؛ نظرا لتأثر الأديب وحتى المتلقين بالأمواج الغربية الثقافية ولا نفتأ نجد أنفسنا -بوصفنا متلقين أو دارسين لهذه الأعمال الروائية- نسقط بدورنا رؤيتنا الخاصة والمتأثرة بالأنماط الغربية ذات الثقافة البعيدة تماما عن الجذور العربية فمثلا -على سبيل المثال لا الحصر- صارت الأعمال السردية سواء في المشرق أو المغرب العربي يتحدث أصحابها بكثرة عن المشاكل الهوياتية والعقد والغرائز النفسية خاصة تلك الجنسية منها.

إن الميزان الثقافي المنبث في الآثار الروائية صار يربط كثيرا بنجاعة وتأثير الحداثة وما حققته من ثورة وطفرة جديدة مكنت أصحاب الفن بشكل عام من البحث عن الحرية ودور الذات، وما مدى قوة الذات المتحررة حينما تكون واعية.

ولعل الحداثة سميت كذلك لأنها أحدثت انقلابا في النظر إلى الذات البشرية؛ إذ أنتج النموذج الوسطوي والقديم للتفكير في الذات خطابا معاديا للإنسان بجسمه وعقله، برغبته ومعرفته، في سبيل معرفة ميتافيزيقية، أو عرفان ذوقي، أو سعادة مستحيلة؛ لأنها تضرب عرض الحائط بقواه الحية التي بها قوام وجوده وإدراكه وفعله. هذا بالضبط الذي أرادت الحداثة أن تنقلب عليه عبر جملة من الثورات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعلمية والفنية...، وتأسيس أنموذج أو نظام فلسفي جديد للتفكير في الذات بديلا عن الأنموذج السابق(المصباحي، 2017، صفحة 12)فالبحث عن تفرد الذات حتى عند حضور الوجه المعاكس لها والمتجسد في الآخر كان هدف العديد من رواد هذه الحركة الحداثية التي نجد صورها ومعالمها على النحو التالي حيث:

أعادت النظر في العقل ليصبح عقلا فرديا، عقل الـ'أنا أفكر' والـ 'أنا أشرع' للطبيعة والدولة والفرد على مستويات العلم والسياسة والأخلاق، ما مكن الإنسان من القوة والسيطرة من طريق العلم والتقنية، ابتداء من ديكارت ومن يليه، ثم إن الحداثة قد أعادت النظر في مشروعية العقل. فلم تعد مشروعيته نابعة من قوة من خارجه، كالعقل الفاعل 'الفلاسفة'.. وإنما أضحت صادرة من ذاته، هكذا دشنت الحداثة الفلسفية والسياسية والخلقية عهدا جديدا في تاريخ الذات بالقول إن العقل يؤسس نفسه بنفسه، وإن الذات كافية نفسها بنفسها، ولا تحتاج إلى أوصياء يضمنون معرفتها ويشرعون سلوكها ويفوضون لها تدبير شؤونهم المدنية، وقد أدى التصور الحداثي للذات البشرية بوصفها ذاتا فردية وعملية، لا كلية ونظرية، وإلى انقلاب آخر تمثل في إعطاء الأسبقية للذات على الموضوع، خلافا لما كان سائدا في الزمن السابق على الحداثة. فلم تعد الذات وعيا بمعرفتها للعالم، ولم تعد المعرفة تلقيا انفعاليا للموضوع، أو انعكاسا سلبيا للعالم في مرآة العقل والخيال والحواس، بل أضحت الذات في مقابل ذلك مع كانط

هذه المرة فعلا تشريعا للطبيعة والإنسان بفضل الأطر الحسية والمقولات العقلية التي يملكها الإنسان، تفرض الذات شروطها القبلية على الموضوع، فتحول شتات المعطيات المتناثرة إلى قوانين ومبادئ، أي إلى معرفة وسيطرة. هكذا، أصبحت الذات البشرية، فاعلة ومشرعة للطبيعة، بعد أن كانت متلقية تابعة للموضوع أو ذات فاعلة مفارقة للإنسان (المصباحي، 2017، صفحة 12) فالبحث عن الوعي الذاتي في كثير من المتون والخطابات الأدبية سواء أكانت شعرية أم نثرية -وما الخطاب الروائي- نموذج مثالي لدرس المجالات المعتمة بالإنسان والتي تبحث في هوية الإنسان وما محلها من الإعراب في الحياة فذهب الروائيون صوب تفعيل الوعي العقلي في شخصياتهم.

لكن العالم الأدبي غير ثابت وما دامت الرواية وليدة العصر المعيش وبؤرة الثقافات على اختلافها ،فلم تستمر الحداثة مطولا حتى ظهر ما يدعى بما بعد الحداثة ذلك "أن اجتماع العقل والحرية لتشكيل الذات الحداثية سيشجعها على انتقاد نفسها وتجاوز تصوراتها الأصلية. فبعدما قامت الحداثة، كما عبرت عنها الليبيرالية الكلاسيكية، على إثبات الذات الفردية (الأنا أفكر) انطلاقا من الشك المؤدي إلى اليقين، وبعدما اعتقدت أن الفردية والمعرفة هما أساس ارتياد آفاق المغامرة والمنافسة والتطور والخلق والإقدام على القطيعة، انتهت (الليبيرالية ما بعد الحداثية) إلى قصور المناولة المعرفية الشكية القائمة على نفي كل شيء ما خلا الأنا. وسعيا وراء تلافي هذا القصور، تم استبدال الأنموذج الحداثي، أنموذج الذات الفردية التي تملك هوية واحدة وانتماء وحيدا، بأنموذج ما بين ذاتي (هبرماس)، فلم يعد بإمكان الذات في عالم اليوم أن تعيش منكفئة على فرديتها من دون الآخر؛ إذ صار الآخر جزءا من الذات، ولا يمكنها الانفصال عنه، ولا معنى لها من دونه(المصباحي، 2017، صفحة 12) وليس لنا إلا أن نقر بأحقية واجهة

النمط الما بعد حداثي في التفكير خاصة فيما تعلق بمسار وتوجه الأشخاص الرئيسة في الأعمال السردية، والتي دون أي مجال للشك صارت ترتبط وتتصرف انطلاقا من السياقات الخارجية وحتى الأنساق الثقافية المتعلقة بموضوعات الآخر التي تكون حولها.

3.رواية اختلاط المواسم والتأثر الثقافي الغربي

1.3الإسقاطات الثقافية ما بين شخصية "القاتل" وشخصية "سميرة قطاش:

استطاع الروائي الجزائري بشير مفتي في روايته الموسومة 'اختلاط المواسم' أن يدق باب التأثر بالثقافة الغربية، فحتى وإن كانت هذه الرواية عربية اللغة وجزائرية اللهجة وتتحدث عن شخصيات جزائرية نحو شخصية القاتل، وشخصية سميرة قطاش، غير أنها محمولة على أطياف إيديولوجية غربية بامتياز مثال ذلك طبيعة التكوين النفسي والثقافي لهاتين الشخصيتين، إذ لاحظنا أن كليهما كان يمر من خلال صفحات الرواية بمرحلة التعلم الثقافي الذي كان لا يملك هوية محددة إبان العشرية السوداء التي عرف فيها المجتمع الجزائري عدة تقلبات جذرية حالت بينه وبين النمو الإيديولوجي وحتى النفسي الطبيعي، وتعدّ عمليات التعلم الثقافي من أقوى أشكال التعلم الاجتماعي، لأنها تتألف من:

(ا) أشكال للنقل الثقافي الأمين على نحو خاص ومميز.

(ب) أشكال قوية جدا للإبداعية والابتكارية الاجتماعية التعاونية، أي عمليات نشوء وتكوين اجتماعي sociogenesis يبدع كثير من الأفراد من خلالها وبصور مشتركة شيئا من واقع حقيقي يتمثل في أن المرء أو الكائن البشري مثلما يتعلم (عبر) و(من خلال) آخر، فإنه يتوحد مع هذا الشخص الآخر ومع مقاصده وأحيانا مع حالاته الذهنية(توماسيللو، 2006، صفحة 23) تمام الأمر حصل مع شخصيات هذه الرواية الذين نجد أنهم ومن خلال أنماط لاواعية تعلموا مثلهم

كبعض أفراد المجتمع الجزائري من خلال الرواسب الثقافية التي خلفها وراءه الاستعمار الفرنسي الذي ترك جيلا ومجتمعا متصدع الهوية بشكل عميق.

تصدع ذاتي في الهوية العربية والدينية أساسه مخلفات البعد الاستعماري الصليبي ومن أبشع مظاهره توجه المجتمع حينها -بعضهم وليس معظمهم- لممارسات لا أخلاقية تتنافى وقيم الإسلام والهوية الجزائرية المحتشمة ومن ذلك نجد ما يسرده صاحب شخصية القاتل عن فكرة الغريزة الجنسية التي قال يصف المجتمع مريضا بها نحو إنه الغريزة التي لا تشبع، وهم يريدونه من دون شبع حتى تدر عليهم مالا وفيرا، فالناس بدل أن يحققوا بعض راحتهم من خلال ممارسته، تجد القوة الرأسمالية تزيد من حدة الجوع الجنسي؛ لأن الهدف الأسمى هو خلق حرمان أبدي (الرجل لا يشبع، والمرأة لا تقهر ولا ترتوي)، إنها الحيوانية الكاملة، يمكنك تصفح بعض المواقع الجنسية ستجد فيديوهات لكل أنواع الجنس من الممارسة مع الحيوانات إلى الاعتداء على الأطفال، كل أنوع الشذوذ، ما تطلبه سيكون تحت قدميك، المهم ادفع... وكلما دفعت زادت حاجتك، وتضاعف إدمانك ولن تشبع، ولن تشبع وستظل تجري وراء سراب مستحيل، حيوانية لن تكتمل فيك، إنها الحقيقة كما صار البشر، أو ما كانت دائما، الحيوانية هي الأصل والثقافة تشويهات على الحقيقة البشرية الحيوانية تلك، هذه الأفكار أقولها حتى تفهموا أشياء قد تصدمكم عني، أو قد تعتبرونها خروجا عن خط سيركم الإنساني المستقيم ثم أنا لا أذكرها لأبرر أي شيء، لقد فكرت هكذا من الأول، وكبرت بهذه الرؤية للعالم، ولم أحد عنها قط(مفتي، 2019، الصفحات 24-25) تمعننا في الحوار الداخلي الذي يجريه صاحب شخصية القاتل وبين ذاته نجد أنه طافر عن الطبيعة العربية بل عن الطبيعة البشرية ككل، فديننا الإسلامي وتقاليد وأعراف المجتمع الجزائري تحظر المساس بالطابوهات المحرمة التي منها الخوض في

الحديث عن الجنس، لكن البعد الثقافي المستورد الذي خلفته الثقافة الإفرنجية الفرنسية جعلت من مثل هذه الموضوعات أمرا لابد من نشره والتحدث عنه، لدرجة أننا نلاحظ كيف صار يحيد عن الفطرة السليمة من الجنس بين الرجل والمرأة إلى ما غير ذلك من تصرفات لا أخلاقية وشاذة غير سوية.

هنالك بون شاسع بين الطرح الثقافي الذي قد نتخيله حول المجتمع الجزائري بوصفه مجتمعا محافظا عريقا يحافظ على أصالة العادات والتقاليد وبين ما تطرحه شخصية القاتل في متن هذه الرواية، وإننا لا نستغرب حقا أن تكون هنالك شخصيات تائهة وطافرة مثلها في أي مجتمع فما بالك بمجتمع عرف حقبة دموية وصعبة ساست الوعي الإيديولوجي للأفراد، وأن نمو المرء في عالم ثقافي أمر له دلالاته المعرفية التي تجاوز حتى هذا البعد. إن النمو في عالم ثقافي -مع افتراض امتلاك مفتاح معرفي- اجتماعي يهيئ إمكان الوصول إلى هذا العالم- يفيد عمليا من أجل خلق أشكال جديدة فريدة من التمثيل المعرفي وإن أهم شيء بالنسبة إلى هذه العملية هو أن أطفال البشر يستخدمون مهاراتهم للتعلم الثقافي بغية اكتساب رموز(توماسيللو، 2006، صفحة 2006) فالتقاط الموجات الثقافية التي تستمر ويترعرع معها المرء عادة ما تستهل في مرحلة الطفولة التي إذا أسقطناها على شخصية القاتل لوجدناها فعلا صحيحة نسبيا، فقد ترعرع في كنف جو عائلي بارد كما وصفه ولا يرى فيه سوى أمه غير المتدينة ووالده الذي كان يعاقر الخمرة بشكل يومي، فمن الطبيعي أن نجد مثل هذه الرواسب والمخلفات الفكرية الأوروبية مدسوسة في هذا الخطاب الروائي الذي نجد فيه عدة مواقف تحثنا صوب البحث عن الهوية العربية في المجتمع الجزائري الذي أخذ من ثقافة المستعمر الفرنسي بشكل لا شعوري، ولابد من البحث عن حقيقة هذه الهوية حتى إن صورة تلك الذات، بحسب ما تظهر في المجتمع وللآخرين من الأمم والثقافات، تكون وظيفة ودوافع كي نتجه للتكامل، والضبط الذاتي، والإسهامية

داخل حظيرة الأمم وتحت نور المحتمل والمستقبليات. لذلك، وفي الطريق إلى التوكيد الذاتي وإشباع الحاجة للأمن والاحترام الذاتي والشعور بالرضى عن النفس وبتقدير الآخرين لها، فسنقع أو أننا واقعون فعلا تحت وطأة خبرات أليمة، وانجراحات في السلوك والتفكير بالنسبة للعقلاني الصرف، وللدقة المعروفة في العلوم المضبوطة أو في الآلة والنمط الصناعي(زيغور، 1992، صفحة 243) فمهما حاولنا تثبيت الإدراك الثقافي العربي في المجتمع الجزائري فلا نستطيع تمويه حقيقة أن تداعيات الاستعمار الفرنسي خلف وراءه ثقافة إفرنجية استطاعت الغوص عميقا في جذور اللاوعي الجمعي عند أفراد المجتمع الجزائري ليتناقلها الأجيال من دون وعين وعلينا ألا ننسى أنه تعتبر الثقافة العربية، في قطاعاتها العربية الإسلامية أبرز متخذ، ومكونا بارزا، للفكر الأوروبي. والعكس صحيح، بل بعبارة أدمث، إن لعبة الصراع والتبادل بيننا وبين ذلك الآخر لم تكف عن الحضور والتعمق، عن التحين والتفعيل؛ وفي كل ذلك كانت الثقافة هي الوقود، والمعيار والقمة، وأساس التماسك والتحصن، كانت ثقافتنا من أوائل وأبرز الثقافات في العالم التي بدأت في القرنين الماضيين إعادة التعضية الذاتية، وإعادة الاكتشاف الذاتي، طلبا للرد والاستجابة على التحدي الأوروبي أي للتكيف (الكلي، الحضاري) عن طريق التعلم والتجاوز، عن طريق التوافق التكاملي الخلاق وإعادة التوجيه الذاتي، إذ كانت عوامل كثيرة أدت إلى التأخر العربي الإسلامي نسبيا (أي حيث قفزت بعض الأمم الأوروبية)، كالعوامل الكثيرة أيضا التي ولّدت مؤخرا عدم النجاح النسبي (ومن ثم شعورنا الراهن بالمرارة والفشل، بالندم وبالذنب، بالخوف، من المستقبل وعلى الذات)(زيغور، 1992، صفحة 15) وهذا التشوه الداخلي موجود في شخصية القاتل وحتى شخصية سميرة قطاش التي بدورها عانت من التهميش والتصدع الإيديولوجي بين عيشها بوصفها امرأة جزائرية حرة

ذات أخلاق دينية طيبة وبين وجودها كأنثى في مجتمع ورث عديد السلبيات حول معاملة المرأة.

فمن الأمثلة التي تقدمها الرواية حول أزمة الثقافة الجزائرية حينها هو ذلك الصراع الجسدي والفكري والنفسي الذي كان يدور بين أفراد الشرطة وبعض من فئات الشعب، فقد سرد القاتل في هذا الصدد واصفا لأحد المشاهد العنيفة حينها "كنت في السنة الثانية من الجامعة، عندما بدأت تحدث مواجهات بين المسلحين المتدينين والجيش والشرطة والأمن، كان الطلبة في الجامعة مرعوبين من فكرة انفجار قنبلة داخل المعهد، أو هجوم المسلحين تحت صيحات (الله أكبر)؛ فيقتلونهم على بكرة أبيهم، أما أنا؛ فلم يتسلل الخوف إلى داخلي قط، بل وجدتني على عكس ذلك أتفاعل إيجابيا مع الذين يقتلون باسم هذا أو هذاك، كأنهم بذلك الشكل المتوحش الذي يظهرون به للعلن ينتصرون للقاتل فيّ لذلك الشخص الذي شعر بعد قتل قطة أنه سعيد، بينما رأته والدته مجرما، ها هو الإجرام البشري الذي كنت أتحدث عنه يحدث أمامكم، وتشاهدونه بأم أعينكم، ماذا تقولون الآن -أيها البؤساء- أليس القوي هو الذي يسحق الضعيف، أليست هذه الحيوانية البشرية التي ترفضونها فيكم وهي أهم ما يميزكم(مفتي، 2019، الصفحات 29-28)حوار داخلي يصف فيه الإنسان رؤيته لعالم وحشي مخالف للطبيعة السوية على أنه حقيقة لا مفر من إنكارها، طبعا لو نعود إلى الخلفية الإسلامية بل حتى الأخلاقية وكل ما له علاقة بالمشترك الإنساني لوجدنا أن نظرة الغير سواء لمثل هذه المجازر والعبثية الدموية تعدّ سادية غير طبيعية فيا ترى من أين تشكلت هذه الرؤية الوحشية لدى هذه الشخصية؟ أوليس أولى للوعي الديني الإسلامي أن يحرك ناقوس الخطر والرهبة في نفس هذه الشخصية؟ لا بل ما حدث كان النقيض تماما ذلك لأن ما تناقلته شخصية القاتل من رواسب نفسية ووجدانية منذ طفولته خاصة حدث قتله لقطة والدته جعله يكبر وتكبر معه فكرة التطهير

الإنساني أو العطش للنزعة العدوانية، والتي هي حتما موروثة منذ عهد المستعمر الذي بسببه تفاقمت الأوضاع السياسية والدينية كما تشير الرواية في الجزائر حينها، فحتى الفكر الجنسي وإباحية التعبير صار أمرا منتشرا خاصة في حياة شخصية القاتل وذلك نرجعه لطريقة تقويمه وتربيته وهو صغير على التحرر المضر، وبالمناسبة تدريجيا، تحررت (ثقافة) من متمماتها المضافة وانتهت إلى استعمالها منفردة للتدليل على (تكوين) الفكر و(تربيته) لاحقا، وفي حركة معاكسة لما كان يلاحظ من قبل، ثم المرور من (ثقافة) بوصفها فعلا (فعل التعلم) إلى ثقافة بوصفها حالا (حال الفكر وقد أخصبه التعليم، حال الفرد ذي الثقافة) ... وظلت (ثقافة) في القرن الثامن عشر مستخدمة في صيغة المفرد، وهو ما يعكس كونية الفلاسفة وإنسانيتهم، إذ الثقافة هي أخص ما يختص به الإنسان (نوعا)، تجاوزا لكل التمايزات، شعوبا وطبقات. انخرطت (ثقافة)، إذا، في إيديولوجيا الأنوار كليا، إذ اقترن اللفظ بأفكار التقدم والتطور والتربية والعقل التي احتلت مركز القلب من فكر العصر(كوش، 2007، صفحة 18)فما نريده من كل هذا الكلام هو ربط الثقافة بالتربية والتلقين الذي تلقاه صاحب شخصية القاتل منذ طفولته على نحو أنه قتل قطة والدته في طفولته واستمتع بفعل ذلك، ونما معه حب هذا الفعل الشاذ. لماذا؟ لأنه تربى على التحرر الإفرنجي ولم يتعلم تعاليم الدين الإسلامي أو ما تعنيه الهوية العربية والجزائرية من حب للخير والغير وعدم إيذاء مخلوقات الله فما بالك بالإنسان.

كثيرة هي الصفحات التي تضمنت في الرواية الأنساق الثقافية الغربية التي تشاركتها شخصيات الرواية منها الرئيسة وحتى الثانوية ومن ذلك نستدل بالحوار الذي أجرته الشخصية 'القاتل' مع رئيسه 'الضابط' في العمل عن المرأة والحياة الطائشة التي لا تمت للذات العربية بأية صلة في قوله:

• هل لديك عشيقة

• لا سيدي

• كيف لا تكون لا متزوج، ولا تملك عشيقة وأنت في مثل هذا السن؟

• لم أفهم سيدي

• كل الشباب يحب الاستمتاع بالنساء

• نعم سيدي

• وأنت لماذا لا تفكر مثلهم؟

• لست مثلهم سيدي.

• هذا غير طبيعي... يجب من اليوم أن تبحث لك عن عشيقة أو حتى عاهرة إن لزم الأمر.

• حاضر سيدي(مفتي، 2019، الصفحات 37-36)

هكذا تتضح الأمور ومجرياتها بتأثر الروائي الجزائري بالأفكار الغربية من جهة، وتأثر البيئة الجزائرية بالثقافة الغربية الفرنسية من جهة أخرى، ففكرة اتخاذ المرأة كعشيقة أو تسلية هذا فكر مستورد لا يمت بأي صلة لهوية الرجل الجزائري المحتشم، والذي تناقل عن أجداده حب الشرف وصون الأعراض، وفي المسار نفسه تتشكل أحداث حكاية سميرة قطاش مع القاتل ليجتمعا على علاقة محرمة قائمة على اعتباطية الحب الإفرنجي في مثل وصفه لها قائلا "كانت تلك هي المرة الأولى التي أمارس فيها الحب بشكل طبيعي وشاعري وحتى إن لم أكن مبالغا في الوصف رومانسي، لكن يجب وضع هذا الكلام بين قوسين، لقد فتحت سميرة قطاش شهيتي لأكون بجانبها، وشهيتي لأقتل من أجلها، لقد قررت أن أنتهي من جميع الرجال الذي سببوا لها كل تلك الآلام. لن ينقذهم مني أحد.. كان ذلك قراري الأخير(مفتي، 2019، صفحة 97) وقس على هذه الوتيرة تتصاعد الأنساق الثقافية الغربية البعيدة عن التمثيل العربي في هذه الرواية ذلك حتى نستشف

مدى خطورة الاندماج الحضاري بين الكتلتين العربية والغربية فيما لا يخدم الهوية العربية بل يمحوها عن بكرة أبيها ذلك خدمة للآخر الغربي.

4. تحليل النتائج:

طمس الأخلاق العربية والمواقف الدينية خاصة بين علاقات الرجل/المرأة التي عبرت عنها الرواية بكل جرأة وألفاظ إباحية، تبين لنا حجم التصدع الديني والهوياتي الذي أنتجه حضور الآخر الغربي (الاستعمار الفرنسي ومخلفاته) في تركيبة المجتمع. وعليه تقوم توصياتنا بتسليط الاهتمام على الروايات الجزائرية حقا التي استطاعت مواكبة عديد الروايات الغربية في توجهها وطرقها لأبواب موضوعات محرمة كالشذوذ والسادية وقس على ذلك.

5. الخاتمة:

استجلاء مما سبق التطرق إليه في أوراق المداخلة نخلص إلى ما يلي:

- ❖ تشبع المتون الروائية بالأفكار الإيديولوجية المختلفة، منها التي تناشد بمفهوم الحداثة ومنها من تذهب إلى ما بعد الحداثة، وما يهم في مثل هذه الأعمال الإبداعية هو ذلك الهدف الإنساني المشترك بين ثقافة الذات العربية وثقافة الآخر الغربية.
- ❖ اعتماد المسرديات المعاصرة على فكرة العمق الوجداني من بحث عن الوجود وأسبابه، ذلك الذي تعكسه شخصيات الروايات وتتيحه الآثار الروائية بشكل مفصل وبخاصة عندما يتفعل تفعيل ثقافة الطرح اللامحدود من تجارب إنسانية سوية وغير سوية.
- ❖ حضور الطرح الثقافي التناوبي بين الأفكار العربية والإيديولوجية الإفرنجية القادمة مع الاستعمار الفرنسي في رواية 'اختلاط المواسم' لبشير مفتي؛ حيث تزخر هذه الرواية بكثير من الأطياف النفسية التي تتحدث عن

عمق التأثير الغربي التحرري في شخصية 'القاتل' ومن حوله مثل شخصية 'فتاة الملهى' وشخصية الضابط' وشخصية سميرة قطاش.

6. قائمة المراجع:

- الطاهر بلحيا. (2017). *الرواية العربية الجديدة من الميثيولوجيا إلى ما بعد الحداثة* (الإصدار 1). الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع.
- بشير مفتي. (2019). *اختلاط المواسم* (الإصدار 1). بيروت: منشورات ضفاف.
- دينيس كوش. (2007). *مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية* (الإصدار 1). (منير السعداني، المترجمون) لبنان: المنظمة العربية للترجمة.
- عبد الواسع الحميري. (1999). *الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية* (الإصدار 1). المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.
- علي زيغور. (1992). *انجراحات السلوك والفكر في الذات العربية* (الإصدار 1). بيروت: المركز الثقافي العربي.
- محمد المصباحي. (2017). *الذات في الفكر العربي الإسلامي* (الإصدار 1). بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.
- ميشيل توماسيللو. (2006). *الثقافة والمعرفة البشرية دراسة مقارنة بين أطفال البشر*. (شوقي جلال، المترجمون) الكويت: مطابع المجموعة الدولية.